بعض من ذاكرتي

عدتُ اليوم من المدرسة باكراً على غير عادتي. سيطرت كآبة مرّة على روحي، وقلبي كان يعبث به القلق والتوجس. حاولت رَسْمَ ابتسامة على وجهي فكانت تأتي باهتة وكئيبة، وشعوري المخيف بأن اليوم سوف يحدث شيء ما في بيتنا قد سيطر على كامل الوعي عندي وكاد أن يفقدني الاتزان والهدوء، فحثثت الخُطا لأعرف ما جرى هناك وأنا أحاول إقناع نفسي بأن أقبل الحقيقة على حالها وأياً كانت بشاعتها بتعقل وحلم.

وقفت عند باب البيت وأرهفت السمع، انقبض قلبي خوفاً من هذا الصمت المريع، فاليوم هو العطلة الأسبوعية لوالدي وجلوسه في البيت أربكني إرباكاً لا حدّ له منذ الصباح لأني أكره أن يتواجد في البيت لأوقات طويلة تفادياً لأي صِدام وخلاف مع أمي، إذ تثيره أبسط الأشياء، ويدقق في أصغر الملاحظات، فيثور غضبه في وجهها وتثور هي أيضاً ويبدأ الصراع بينهما من جديد والذي كنت أدفع ثمن طرده من البيت دموعي وفرحتي. دخلت البيت كمن يدخل سجناً، وناديت في صمتِ أعماقي:

- سليم، أين أنت الآن..؟.

شَدَدْتُ من أزري وأغلقت الباب خلفي، تمنيت لو إني بقيت خارج البيت ولم آت إليه، مرّت لحظات قلق عجز لساني فيها عن النداء على أحد سوى إني كنت أنادي سليم في نفسي الموحشة. شعرت بحركة ما في المطبخ، مشيت نحوه ببطئ وكانت الثواني وكأنها دهر حتى وصلت بابه، شاهدت أمي

هناك تعد طعام الغداء، غمرني إحساس جميل كالذي نشعره بعد الاستيقاظ من حلم مزعج جداً. شعرت بدوار خفيف وكدت أن أقع أرضاً لولا إني قد أسندت ظهري إلى الجدار خلفي وتبادلت مع أمي نظرة امتنان ومحبة، وبلا شعور مني وجدت نفسي بين أحضانها تداعب بأصابعها شعري وتتلمس بها وجهي. عادت إليّ روحي وكأني ولدت الآن لتوي، سألتها عن والدي فقالت لي إنه في غرفة الجلوس يقرأ جريدته، اجتاحتني مشاعر مختلطة ومبهمة عبثت بقلبي حتى ضاق بها وكاد من فرط سعادتي أن ينفجر ويملأ الوجود حباً. قبّلتها وذهبت إلى والدي، طفولتي عادت إلي، وآلاف الضحكات تتوالد بداخلي وأنا أركض بفرح نحو أبي. تحدّثت معه وكأنه غاب عني سنين طويلة، سألني شأني، فأجبته بصوت متهدج وعاتب :

- مرّ زمن طويل لم تسألني فيها هكذا.

أبعد عينيه عني ونظر في جريدته، كانتْ كلماتي كسهم اخترق سكون نفسه، نظر نحوي بعد برهة وابتسم ببرود، وعاد يسألني عن مدرستي. أجبته وحاولت أن أخبره بما يشغلُ بالي من خلافه المتكرر مع أمي، لكن العزيمة خانتني وجاءت محاولاتي فاشلة. لاحظ صمتي وحَيرتي فسألني:

- ما بكِ..؟.

فلم أجب، نظرت نحوه وقاومت دمعتي المجنونة، حبستها حتى لا أفسد صفاءه النادر هذا، ذهبتُ إلى غرفتي، بدّلت ثيابي، وأمسكت ريشة ألواني، ورحت أداعب لوحتي من خلف غشاوة دموع على عيني.

في المساء أتى سليم مع أهله لزيارتنا. فتحت الباب لهم، عانقتني عمتي وبناتها، ورتّبت زوجها على ظهري بمودة

ومحبة. صافحت سليم، أشرقت ابتسامته الهادئة في صفحة وجهه فكانت كبلسم شفا جرحي وأعاد إلى روحي تفاؤلها. ضغط على يدي وكأنه يبوح لي لواعج صدره، وهمس في إذني بكليمات قليلة كانت لي ذلك اليوم نفخة من سعادة أيقظت روحي من غفوتها. شعرتُ بفرح شديد وسعادة طاغية أنارت قِفار ذاتي المظلمة، فهذه ربما هي المرّة الأولى التي تأتي فيها عمتي وعائلتها لزيارتنا دون أن يكون هناك أي خلاف بين والديّ، كثيراً ما شهدوا الصياح والسباب وعراك الألسن بينهما، وطالما قام أبي وشتم أمي بحضورهم وأفرغ غضبه في وجهها. في كل مرة كنتُ أشعر بأني أتلاشى ببطيء حتى أكاد أن أختفي، وكم تمنيت أن أختفي حقاً عن الأنظار وأذوب بين ذرات الهواء، حيث كان الخجل يربكني وأنا أترجى بصوت كسير مخنوق العبرات ومن ثم أهرب نحو سليم، فتلتقي العيون بعناق طويل وحميم، تفيض نظراته في نفسي حباً وحزناً، وتعيد لها بعضاً من الهدوء والسكينة، وكانت كل نظرة أرشفها من عينيه تكتب بداخلي سطر حب جديد في قصة لم تبدأ ولم تنتهي. وكان ينفذ بنظراته حتى ظلاماتي العميقة، فتتحول السهول السوداء هناك إلى مروج خضراء زاهية. في بعض الأحيان كان يهرب بي من أجواء السمّ تلك، فنذهب إلى مكان قصي، أو يجلس بجانبي يحدثني بما يبعد ذهني عن ما يدور حولي، كان يحثني على أن أكون صلبة في وجه المحنة، وكان يجتاحني بسيل كلمات ساحرة تربك روحي وتلاعب قلبي الفتي، وعندما كان يمسُّ يدي مساً فإني كنت أ غرق بدفئه وأعود بجانبه طفلة صغيرة تطير فرحاً وهي تتعلم أبجدية الحب على يديه. كان سليم يحوّل المستحيل أمامي وكأنه حقيقة، فأراه وأشعره يتراقص في ثنايا ذاتي، وكان يلازمني حين تتلبد غيمات الأسى في سمائي بين الحين

والآخر حتى تعود البسمة تتوج ثغري من جديد. قال لي يوماً :

- لا يوجد حزن في حياتي إلا حزنكِ أنتِ.

فكرت بكلماته كثيراً، ورددتها كثيراً أيضاً، عاهدته بيني وبين ذاتي بأن أكون فرحته لو جمعتنا الأيام معاً يوماً ما، هو الوحيد الذي يفهمني وفني، وهو من يحرض ريشتي على الإبداع، كان يحدثني عن كل شيء وأنا أرسم، وكان يحلّق بي في عولم تجاربه، وكان يسهب بحديثي عن أحلامه التي كنتُ أنا فيها الشمس التي تدور حولها كل أفلاكه وتنتهي بها كل مساراته، وأنا أكاد من فرط سعادتي أن أبوح له بما كشفته العيون منذ زمن بأني أيضاً أراه الشمس التي من ضياءها أستمد نسغ حياتي. كانت تلك الأمسية سعيدة جداً، ساد جو مرح وألفة بين العائلتين، تقارب أبي وأمي كثيراً، وتحدّث أبي عن بعض هفواتها مازحاً وضاحكاً، وأمي بادلته اللطف والمودة بل والمحبة أيضاً، ما أذهلني وأفرحني. كنت مكاني قبالة سليم أكاد أن أحلّق عالياً من فرط فرحتي، ووددت لو أستطيع أن أصرخ ملء صوتي ليعرف الجميع بأني سعيدة وحزينة وعاشقة. التقتْ عينانا مرات كثيرة، ونطقت بآلاف الكلمات العصية على اللسان، أحقاً بأن للعيون لغة بليغة كما يقال..؟، ليتها تتكلم لكانت نطقتْ شهداً وعزفتْ لحناً.

تبادلنا الابتسام وتحادثنا بأعذب الكلام الصامت، حرّض الأمل والسعادة في نفسي، وشعرت بأني اليوم إنسانة جديدة لا ماضي حزين لها، وكم تمنيت في تلك الأمسية أن أركض وأرتمي على صدره وأبكي فرحاً وحزناً. أومأتُ له فنهضنا معاً لأريه لوحة كنت أرسم فيها، هناك وبغفلة عن عين الرقيب والحسيب غمرني بأسئلته عن شؤوني ودراستي وظروف نفسي القلقة، شكوت له قلقي منذ الصباح، وكشفت له

فرحتي الآن، وبثثت أمامه همومي وخوفي من القادم، لمستُ صدقه نحوي، وكانت تساؤلاته تحيطني من كل صوب وتشعرني بأمان أفتقده وأتوق إليه ولا أجده إلا بين يديه وحده.

كان يمد يده لي في محنتي، وكان يطل بإشراقته وسط غيومي الملبّدة بالهم والحزن، وكان وحده القادر على فهمي دون كل من يحيط بي. في يوم قال لي:

- أفهمكِ من عينيكِ.

لم يفصح أكثر كعادته الصامتة، وكان ما قاله في جملة واحدة قد ثبّتّه في نفسي أكثر وأكثر، وبات أكثر من صديق بالنسبة لي، بل إنه من أحب وأريد.

بعد ذهاب عمتي وعائلتها نشأ خلاف بين والديّ انتهى بمغادرة أبي البيت. لم أستطع النوم ولا الدراسة ولا حتى الرسم في تلك الليلة، بل جلست قرب نافذتي والحسرات تتوالد بداخلي وتريني الواقع كالح السواد، حتى الدمع تجمّد ورفض غسل حزني. خلاف أبي وأمي هذا منذ أن وعيت دنياي هذه، دائما أراهما في عراك وخصام لا أجد له سبباً إلا الكره المتبادل بينهما، فتصبح أتفه الأسباب سبباً كبيراً لإشعال خلاف يتحول إلى حرب مفتوحة تمتد لأيام وربما أسابيع. تمنيتُ لو كان بمقدوري أن أصلح الحال وأن يخلو ذهني من كل شيء إلا من دراستي وفني وسليم.

في تلك الليلة أمام النافذة شعرت بالكره اتجاه والديّ لأول مرة في حياتي، وشعرتُ بحقد عليهما لم تألفه نفسي قبل هذا، وأحسستُ بأني الخيط الواهي الذي يربطهما معاً، وهل الخيوط الواهية ستصمد في وجه أعتى العواصف..؟، تسلّل شعور في داخلي بأن الطلاق سيتم يوماً ما لامحالة، فذاب دمعي المتحجّر، وبكيت بشدة إذ تراءت لي عذابات الأيام القادمة

وقسوتها، تعاظم خوفي من أن أصبح يوماً ما يتيمة فلا أجد سوى دموعي ولوحاتي وسليم ليخفف من ضيقي. آه يا سليم، لو تأخذني وتهرب بي إلى البعيد البعيد، حيث لا حزن ولا قلق ولا خوف، ليتك تفعل لتجعل مني إنسانة أخرى لا تعرف من حياتها إلا الحب والفن فقط، حاجتي لك تزداد مع تعاقب الأيام، ولا أستطيع أن أرى أي حياة لي بدونك، فلولاك لكان القهر قد قضى عليّ منذ زمن، لكن وجودك في حياتي يجعلني صلبة وقادرة على مواجهة هذا البركان الثائر في بيتنا. وسأدرس وأرسم لأحقق طموحي وحلمكَ بأن أكون فنانة ترسم بريشتها أحاسيسها ومشاعرها بألوان زاهية، وأن تحوّل العالم إلى أزهار وأشجار وأطيار، وتقلب الحزن فرحاً والتشاؤم تفاؤل والأسود أبيض، أود أن أحقق حلمك وطموحي يا سليم، هذا وعد من فتاة أحبتك، ورأت أملها وسعادتها بك، ولولا ظروف بيتها وتعاستها لكان لديها الكلام الكثير والكثير الذي يقال لك بوحاً، عن حبها وفنها وحزنها، وعن إنسانة أحبتك بصدق رغم إنها عاشت وستبقى حزينة من ذكرى والديها.

****

الأسبوع الماضي خرجتُ من غرفتي أركض بفرح كالأطفال، جررت أمي من يدها لأريها لوحة كنت قد أنجزتها الآن لتوي، رسمتُ فيها نِسراً كبيراً ينقضّ على أرنب صغير في مرج أخضر يمتد حتى يلقى السماء الصافية عند الأفق البعيد. نظرتْ أمي في اللوحة ملياً، وخَلَتْ صفحة وجهها من أي تعبير واضح، أدهشني تركيزها وهي التي لم تكن قبل هذا تهتم بالفن وكل ألوانه، لكنها أمام هذه اللوحة صمتتْ وشعرتُ أنا بشيء ما داخل نفسها يحثها على الاسترسال في النظر نحو اللوحة والتمعن فيها. سألتها مستفسرة بنظراتي فاستدركتْ،

وأبدتْ إعجابها بها، وعند إلحاحي على ما كانت تفكر به قالت بانكسار :

- لكأنكِ رسمت الواقع، وكأني أرنب والنسر أبوك.

وهمّت بالخروج، ذهبتْ فرحتي مني وتلاشت وأصبحت الدنيا في عيني سوداء كالسخام. لم أتوقع أن تصل أمي بتفكيرها إلى هذا الحد، خلاف والديّ هذا اقتحم حتى لوحاتي العزيزة. بكيتُ بحرقة، ورفضت تناول طعام الغداء رغم كل توسلاتها واعتذارها ومحاولاتها اليائسة لإيهامي بأنها كانت مازحة معي في كلامها هذا وغير جادة، وأبدتْ إعجابها الشديد في لوحتي. سألتها باكية:

- هل تحبين أبي..؟، وإذا كنتِ لا تحبينه لماذا بقيت معه حتى الآن..؟، بل لماذا أنجبتني منه بدون حب ..؟.

لم تجبني، وخرجتْ تمسح دمعها ولم أرها ذلك اليوم. أتى والدي عن المساء، ناداني فلم أجب، سأل أمي عني فقالت له إنها في غرفتها، أتاني وكنتُ جالسة أمام لوحتي جامدة أمامها كتمثال أنظر إليها، تحدّث معي فلم أجبه سوى بنظرات ذليلة، حاول معرفة سبب بكائي فبقيت على صمتي، يأس مني فنظر إلى لوحتي، لا أدري كم مضى من وقت وماذا تحدث فيه عن اللوحة حتى باغتني بسؤاله :

- أخشى أن تكوني قد رسمت هذه اللوحة من واقع بيتنا..؟.

نظرت نحوه مستفسرة وقد استفزني سؤاله، أكمل حديثه بهدوء بارد وهو يشير إلى الأرنب في اللوحة:

- ربما خلافي مع أمك المستمر، أرى نفسي به.

صعقني كلامه، وبدّد الاتزان في عقلي، فأمسكتُ اللوحة ومزقتها ورميتها من النافذة، وبعثرت كل ألواني على الأرض وكل أوراقي، حاول تهدئتي فصرخت بوجهه بضراوة الجريحة وسقطت على الأرض أبكي وجسمي ينتفض قهراً وكمداً، وكان آخر ما أدركته من حولي في ذلك اليوم، ولم أستعد وعي إلا في مشفى كنتُ قد نُقِلْتُ إليه بعد نوبة عصبية حادة انتابتني، وعندما فتحت عيني بعد ساعات عدة كان سليم أول من رأيته بجانبي يبتسم لي بهدوء ممزوج بالقلق والإرهاق، وكانت شفتاه ترسلان نحو ذاتي كلماته الرقيقة همساً، وكانتْ عيناه تصرخان شوقاً بأبلغ الأشعار.

لم أخبر أحداً من أصدقائي ولا أقربائي عن سبب الصدمة إلا سليم الذي طفا التأثر فوق ثنايا وجهه القلق، وبعد صمته المعتاد ربّت على يدي بحنان وابتسم لي ابتسامته الحالمة التي كانت لي كسيل من الكلمات الكثيرة لم يقلها لي لسانه، الشيء الذي أوقد الأمل في قلبي من جديد وأنساني أوجاعي وكأنها لم تكن.

****

كنتُ قد تخرّجت من كلية الفنون الجميلة وغادرت مع أبي دمشق بحكم ظروف عمله، وأمي كانتْ غادرت إلى أخوتها في الريف بعد طلاقها. لم أعد أرى سليم بعد وفاة والده المفاجئ وتنقله من عمل إلى آخر ومن مكان إلى آخر أيضاً، وبَدَتْ وكأن كل السُبل قد تقطّعت بيننا وللأبد. مات كل أمل في نفسي إلا أملي من سليم الذي لازمني رغم قسوة المحن والتجارب، وذَبلت كل الورود في حديقة حياتي الجافة وعشتُ فيها من أجل وردتين فقط: فني وسليم، وحيدة وحزينة كالوردة

وسط صحراء قاحلة، حبي لـه ازداد وحـاجتي لـه كانـت تكبـر يوماً بعد يوم.

****

كان قد انقضت خمس سنوات عندما عدت إلى دمشق، المدينة العزيزة والعَبِقة بروائح أحزاني. أقمتُ فيها معرضاً فنياً كبيراً في إحدى صالات العرض الكبيرة والمشهورة، وعرضت فيه مائة لوحة من أعمالي بيعَ معظمها. وفي صدارة المعرض علّقت لوحتي الأغلى والأعز عندي وهي ذات قياس كبير رسمت فيها نِسْرَينِ ينقضان على أرنب واحد صغير محاطاً بكومة من الحجارة في مرج أخضر يمتد حتى يلقى السماء الصافية عند الأفق البعيد، وأسميت هذه اللوحة (بعضٌ من ذاكرتي) ورفضتُ بيعها رغم الطلب الشديد عليها، مما جعلني أكتب بجانبها (ليست للبيع).

أتى إلي مشرف الصالة يوماً وقال لي:

- هناك رجل في الخارج لم يفصح عن اسمه مصرٌ على أن يقتني لوحة (بعضٌ من ذاكرتي) الكبيرة ورغماً عن صاحبتها، وأخبرني أن أنقل هذا لك حرفياً.

أغرقني سيل الغضب والفضول، وخرجتُ مسرعةً من الغرفة الجانبية إلى صالة العرض لأرى هذا الرجل بنفسي، عندها صرخت بأعلى صوتي فرحاً عندما شاهدتُ أمامي بعد كل هذه السنوات : سليم.